إلى جَميع أصدقائِي على مَواقِع السّوشَل ميديا.. وكلِّ من يُتابعُ مَسيرَتي الأدَبيَّة.

الطّبعة الرَقميَّة الأولى، كانون الثاني ٢٠١٨

لا شَيْءَ يُزعِجُني الآن..
ها نحنُ منسَجمان في النِّسيان!

محمود درويش

الحُبُّ جَحيمٌ يُطاق،
والحَياة بلا حُبّ نَعيمٌ لا يُطاق.

كامل الشنّاوي

الحُبُّ بالنّسبَةِ للبَعض قَدَر...

ولكنَّه عندَ البَعضِ الآخر قَرَار!

في الصَّنفِ الأوَّل قد يكونُ الحُبُّ ضَعفاً. وفي هذه أبى الشّاعرُ المُتنبِّي على نفسِهِ أن يَقعَ في الحُبّ، معَ وجودِ ما يَشي بغرامِهِ بأختِ سَيفِ الدَّولةِ الحمَداني، لأنَّ الحُبَّ عندَه ضَعفٌ وذِلَّة، والأولويَّةُ للسَّيفِ والكلِمَةِ والمَجد.. وهذه ثالوثُ القوَّة. وأمّا في الصَّنَفِ الثّاني فالحُبُّ حتماً قوَّة! ثمَّة شَيءٌ يُشبهُ قرارَ البَحَّارِ أن يخوضَ مُغامرَةً ما عَذراء، وقرارَ المُهاجر إلى بقاعٍ بَعيدَة، وأيضاً قرارَ الفِدائيّ أن يَستشهِد! بغضِّ النّظر أكانَ الحُبُّ زاهياً أم شاحباً. وإذا كانَ الحُبُّ قَدَراً فهو يتَّسمُ بطابعٍ رومَنسيٍّ نافذٍ إلى عالمِ الرُّوْحِ ومُتعَةِ الخَيَال. وإذا كانَ قراراً فهو مُصطبغٌ بمَزيجٍ منَ الشَّجَاعةِ والمَسؤوليَّةِ والتَّضحيَةِ والمُبادَرَة. وليسَ بالضّرورةِ أن يكونَ النّوعُ الثاني هو الأمثَل.. فمَسيرةُ الرَّجُلِ والمَرأة في دُروبِ الحَياة تكونُ عرجاءَ مُتعثِّرَة إذا خبَت فيها شُموعُ الرُّومنسيَّةِ

والخَيال، أو كانتْ ضَعيفةً أمامَ العواصِفِ والتَّحدِيات. والنّتيجةُ الأكيدَة أنَّ الضّعفَ والقوَّة توأمانَ يحتاجُ واحدُهما للآخر.. القوَّةُ تمنحُ الضّعفَ من قوَّتِها للقفزِ فوقَ حَواجزِ العَقبات، والضّعفُ يمنحُ القوَّةَ من عذوبَتِهِ ليصبحُ أكثرَ لطفاً وبَهاءً. ولكنَّ الاحتمالَ الثّالثَ والأخير، وهو حاضرٌ وَشيكٌ أبداً! بينَ الضّعفِ والقوَّةِ فهو الطّامةُ الكبرَى! أي عندما يقفُ كلاهُما ندَّينِ مُتحَاربَينِ مُتناحِرَين.. عندَها يتحوَّلُ الحُبُّ إلى مِسْخٍ هَجينٍ مُرعبٍ لا يَرتوي، ولا يُمكنُ والحالة هذه، إيقافُ جِماحِ نَهَمِهِ وَجَرائِمِه إلاّ بربطِ مِعصَمَيهِ وعَصْبِ عَينَيهِ وإيقافِهِ على جدارِ الإدانة.. وإطلاقِ رَصاصَةِ العَدل.. والرَّحمَةِ بهِ وبضَحيَّتَيْهِ اللّتين أقلّ ما يُقالُ فيهما أنَّهما "غَبيَّتَان"!

*****

كانَ النّادلُ في مقهى PRUFROCK Coffee المُشرف على التّايمز قد أحضَرَ القهوة الإيطاليَّة، ووَضعَها على الطّاولة أمامَهُما وانصرَف. ثمَّ أشعلَ صَخر سويدان سيكارتَه الأولى في تلكَ الجَلسَة، وراحَ يمُجُّ الدُّخانَ في الفضَاء. أزاحَ فنجانَ القهوة قليلاً من أمامِهِ، وقرَّبَ المنفضَةَ إليه.. وهو ينصُتُ بعُمق لما سيَقولُهُ المُحقِّق شَكيب مُدوَّر عندما أفصحَ صَخر عن مُرادِهِ من هذا اللقاء. رَدَّدَ المُحقِّق عبارَةَ صَخر سويدان الأخيرةَ مُظهراً الاستغراب:

– جريمَةَ ١٩ تشرين الأوّل ٢٠١٥؟!

– ما بكَ؟ سألَ صَخر.

– هذه لم تكن جَريمَةَ البَتَّة! إنَّها انتحَارٌ مُزدوج لعَشيقَينِ بائِسَين. ليسَ هناكَ مُدَّعٍ.. والمَقتولُ هو القاتِل.. وأُقْفِلَ الملَفُّ بالشَّمْع الأحمرَ!

كانَ المُحقِّقُ بارعاً في إظهارِ دَهشَتِه، وتمثيلِ دَوْرِ الجَاهل أمامَ الرَّجُل صَخر. شَكيب مُدَوَّر في بدايةِ خَمسينيَّاتِهِ، ذو قامةٍ متوسِّطة عَصريُّ الهِندام، أصلعُ أنفُهُ دَقيق وَعَيناهُ زرقاوان حادَّتان، يُدغمُ في كلامِهِ العَربَيِّ الكثيرَ منَ المُفرداتِ الانكليزيَّة والفرَنسيَّة، وهو كذلكَ بارعٌ في تَحليلاتِهِ النَّفسيَّةِ والسِّياسيَّة. وهذا الكوكتيل الوافر منَ الكونتراستات في شَخصيَّتِهِ مؤشِّرٌ بليغٌ لحُضُورٍ وكاريزما. ولكنَّ شَكيب يشعرُ في قلبِهِ

بأنَّ استنتاجاتِهِ لم تُخطئ! هو الذي يتمتَّعُ بخبرَةٍ واسِعَة في عالم الجَريمَة، وعِندَما يُقصيهِ "الوَحْيُ المَعْصُوم" عن عُقدَةٍ كادَ أن يصلَ إلى حلِّها، يصابُ بإحباطٍ شديدٍ لدرَجَةِ الكآبة! وتبقى الكآبة في قلبِهِ لأسابيع وربَّما شهور. ظنَّ في بدايتِهِ أنّها مُشكلةٌ نفسيَّةٌ عندَه وذهبَ إلى المُعالج النَّفسِيّ. ولكنَّه أدركَ فيما بعد أنَّها المَوهبَة الفِطريَّة المَمنوحَة لرجالِ العدالة، وهذه الغريزَة المُلِحَّة المُفرطَة في الازعاج نحو مُلاحقةِ الأشباح واصطيادِ خفافيش الظُّلمَة.. إن هي إلاّ ميكانيكيَّة سِنْسِر اقتِفاءِ الآثر الذي وَقَّعَهُ الخالق في دواخِلِهم بدِقَّة. والخطأ المُضحِك الذي يرتكبُهُ المُجرمون دائِماً، انَّهُم قادرون على الافلاتِ من عَبقريَّةِ هذا السِّنسِرِ العَجيبَة.

سألَ صَخر سويدان:

- وهَل أنتَ مُقتنع بأنَّها انتِحارٌ أيُّها المُحقِّق؟!

وابتسَمَ شَكيب مْدَوَّر في قلبِهِ، وَتيَقَّنَ من أنَّ صَخر يَملكُ كلمَةَ المُرور إلى حَلِّ هذه الأحْجيَة. ولكنَّه يُدركُ تماماً أنَّ القضيَّة انتَهَتْ.. والحقيقة هنا لا قيمةَ لها.. حتّى ولَو ظهَرَ الفاعِلُ الحَقيقيّ! لأنَّ "الوَحْيَ المَعْصُوم" يَبقى دائِماً مِظلَّةً واقيَة للقاتِلِ المُحتَمَل. ولكنَّ كابوسَ الفضوليَّةِ التي تضطرمُ بها غريزةُ السيِّد شَكيب لا يُزيحُهُ إلاَّ جَلاءُ الحَقيقة، تماماً كالتِّلميذِ الذي يعشَقُ المسائِلَ الرِّياضيَّةَ المُعقَّدَة، فلا ترتاحُ عبقريَّتُهُ بسوَى نتائِجِ المُعادلاتِ المُقنِعَة مئة بالمِئة. إنَّها فقط نَزْوَةُ ذكاءٍ مُتَنمِّرٍ أبعَدَتْهُ "الفَوْقيَّاتُ السِّياسيَّة" إلى غيتواتِ الخَيْبَة. وأجابَ المُحقِّق عن السُّؤال بنبْرَةٍ واثِقَة:

- أجَل. وهل لديكَ مَعلومات تُفيدُ عكسَ ذلِك يا سيِّد صَخر؟

أجابَ صَخر:

- في الحَقيقة.. لدَيَّ الكثير لأقولَه لكَ يا سيِّد شَكيب.

وقالَ المُحقِّقُ من فورِه:

- وها أنا سامعُكَ حتّى الصَّباح.

ثمَّ سَحبَ شَكيب مُدَوَّر هاتفَه الموبايل من جَيْبِه، وَسألَ مُحَدِّثَه:

– هل تسمَحُ لي بأن أؤَدِّيَ وَظيفتي كمُحَقِّق.. ما دامَ الكلامُ عن قضيَّةٍ وجَريمَة؟

– ستُسِجِّلُ الحَديثَ على الموبايل أليسَ كذلِك؟ سألَ صَخر.

– ألَدَيكَ مَانِع؟

– لا.. ليسَ هناكَ ما يُخيف.. أو يُقلِقُ حتّى. فأنا أعرفُ تماماً أنَّه جرَى تَعتيمٌ وتصفيَة "مُبرَمَة" للقضيَّة.

فقالَ المُحَقِّق عندئذٍ:

– حَسناً.. نحن متَّفِقان فلنبدأ بعَمليَّةِ الإقلاع بحِكايتِكَ المُشَوِّقَة. هه.. لقد بدأ الموبايل يُسَجِّل. تفضَّل يا سيِّد صَخر.

وأخذَ صَخر سويدان رَشفةً من القهوَة، ومَجَّ مجَّةً من سيكارتِهِ، ثمَّ شرَعَ يتكلَّم:

– سآخذكَ يا سيِّدي الكَريم إلى مَرحلَةٍ تائِهَةٍ في رُزْنامةِ فصولِ الحَربِ الأهليَّةِ اللبنانيَّةِ اللاّهبَة.. في ثمانيناتِ القرْنِ الماضي، وبالتَّحديد إلى مَيتَمِ راهباتِ العازاريّة في برمّانا. هُناكَ بدأتِ الحَياةُ الفِعليَّة لولَدٍ ما.. يَتيم! لفَظتْهُ المَسيرَةُ الطبيعيَّة للبشَر في أحدى "دوائِرِها المُربَّعَة" بقسوَة، لتقولَ لهُ أنَّه غيرُ مرحَّبٍ بهِ في قوافِلِها الطويلةِ المُضنيَة، وحُجَّتُها السَّاديَّةُ التَّافهَة دائِماً: الحَياةُ قدَرٌ ونَصيب. هكذا ببَساطَة! لقد باتَ الحَظُّ والقدَرُ والنَّصيبُ المُتَّهَمَيْنَ الحاضِرين، أبَداً، لتَلَقّي الاتّهامات والإدانة.. فيما الجُناةُ الحقيقيُّون طليقون في بلادِ اللهِ الواسعة.

فقاطعَهُ المُحَقِّق:

– يبدو أنَّكَ ستغوصُ بنا في تفاصيلَ وأحداثٍ قديمة جدّاً!

فرَدَّ صَخر وقالَ:

- إنَّ الأسبابَ الحَقيقيَّة للصرِّاعات ليسَتِ الحدَثَ المُباشَر القريب.. بَل هي الأسباب غيرُ المُباشَرَة البَعيدة. أليسَ كذلك يا سيِّد شَكيب؟ هكذا الجَريمَة.. وأنتَ أدرى.

مَجَّةً أخرى من سيكارتِهِ، وعادَ صَخر يُتابعُ قِصتَّه:

- قبلَ المَيْتَم.. أيْ مرحلة الطّفولة الأولى لا أهمِّيَةَ لها الآن. ما اسمُ الولَدِ اليَتيم.. من هو أبوهُ ومَن هي أمُّه.. واسمُ عائلتِهِ.. أيضاً لا أهميَّةَ لكلِّ ذلِك. جَوهرُ القضيَّة.. هو كيفَ قادَ هذا الولَدُ قاربَهُ الصَّغيرَ لوَحدِهِ وسطَ العواصِفِ والتَيَّاراتِ العاتيَة. في المَيتَم كانَ اليُتْمُ السّابحُ في وُجُوهِ الصِّبيانِ والفتيات إخاه الوَحيد، والطبّاخُ أمَّه، وخَدُّامُ المَيتَم أصدقاءَه، والإدَارةُ أسرتَه. ومهما بلَغَتِ المناقبُ والفضائِل عندَ هؤلاء لن يُعادلوا حنانَ الأمّ وعَطفَ الأب أبداً. وهم مَشكورون على ما قدَّموه بكلِّ تأكيد. في المَيْتَم يَعيشُ اليَتيمُ نوعاً منَ الحَياةِ هو مَزيجٌ غريبٌ منَ المَدرَسَةِ والكشّافةِ والجُنديَّةِ والاصلاحيَّة.. في علاقاتٍ اجتِماعيَّةٍ لا تَسمَحُ بنمُوٍّ عاطفيٍّ تَدريجيّ.. فهو دائماً في وَضعيَّةِ تَدَرُّبٍ على النُّضوجِ والقوَّةِ والمَسؤوليَّة وهو بَعدُ ولدٌ ضَعيف. وداعمٌ أساسِيٌّ من دعائِمِ القوَّةِ في بناءِ الشَّخصيَّةِ هو الاشباعُ العاطفيُّ في سنواتِ الطّفولة. وهكذا تُحرقُ المَراحلُ والقفَزاتُ النَّفسيّةُ وتُتلف، فيتَحوَّلَ اليَتيمُ في نِهايةِ المَطاف إلى خَميرةٍ مُشرَّعةٍ على احتمالاتٍ شَتَّى في المُستقبل. والتَّشَوُّهاتُ النَّفسيَّةُ سلاحٌ ذو حَدَّين! لقد كانَ هناكَ نَجمَةٌ وَحيدةٌ في هذا الليل الطّويل في حياةِ الولَد.. الجَدَّة. إنّها جدَّتُه لأمِّه. كانتْ جدّتُهُ الوَمضةَ العاطفيَّة الحَقيقيَّة التي برزَت في وَحشتِهِ المُزمِنة.. بل شِبْهِ المؤبَّدَة.. ثمَّ قفزَ جِنُّ القدَر ثانيةً.. ومَدَّ يَدَه ليَحرمَهُ من نورها هي الأخرى. إنَّهُ يَعيها تماماً.. ويذكرُها عندَما كانت تأتي مَرَّتين في الأسبوع ويَقضيان النَّهارَ سويَّة. كانت تأتي يَومَي الأربعاء والأحَد. أحياناً كانَ ينتظرُها في الباحَةِ القريبَةِ من بوّابةِ المَدخل الرَّئيسيّ، وأحياناً يكونُ قد نسيَها لسَببٍ أو لآخر.. وهو ولَد! وعندَما كانَ ينتظرُها في الباحَةِ كانت عيناه الرَّطبتان، طَليعَةُ ما يَضطرمُ في أحشائِهِ، تُخبرانِ عن عُمق الشَّوقِ والحَنين إليها. لا يَدري لماذا كانَ يشعرُ أحياناً بهذا الشَّوق العارم إليها! ربَّما في لا وَعيهِ كانَ يرى فيها أملاً ما في المُستقبَل، لقد رَدَّدَتْ له مراراً أنَّه إذا بقيَ عاقلاً ومُهذّباً ستُخرجُهُ منَ المَيْتَم ليَعيشَ معها في بَيتِها في بيروت. لقد كانت جدَّتُه مَهيبَةً جذّابَة، أنيقةَ المَظهَر وتُحسنُ

التبَرُّج، وأحياناً كثيرة، كان يلتقِطُ بذاكرتِهِ الحادَّةِ رائِحَةَ عطرِها ويُخبِّئُهُ في خَيَالِهِ النَّشِط ليَستحضرَهُ مُعزِّياً في نَوباتِ العُزلةِ القاتمَة. وربُّما الجَدَّةُ بحكمةٍ عندَها، أو خُطَّةٍ ما كانتْ تُعِدُّها، سَعَتْ أن تكونَ بهذا المَظهَر في عَينَي الوَلَد.. لكي يرَى فيها جَمَالاً أموميّاً، يكونُ بمثابةِ مَرحلةٍ انتقاليَّةٍ قبلَ أن تأخذَه إلى بيتِها في وقتٍ مناسب، كانتْ هيَ تتشوَّقُهُ قبلَ الصَبيّ. ولهذا السَّبَب عندَما قالوا له ذاتَ يوم:

– وَفاء لن تأتيَ إلى هنا بعدَ اليَوم.

وَهو لم يكن يناديها بـــ "تيتا" بل باسْمِها "وَفاء"، ولم يَدرِ أنَّها جَدّتُه لأمِّه إلاّ بعدَ زَمَنٍ على غيابِها.

سألَ مَذعوراً:

– لماذا؟ ألن أرَى وَفاء مَرَّة ثانيَة؟!

قالوا له:

– لا.. لقد ذَهبَتْ إلى السَّماء. إنَّها الآن عندَ يَسوع.

وهكذا انطفأ الرَّجاءُ في عاطفةِ الولَدِ اليَتيم، وبشكلٍ نهائِيّ. وبَكى كثيراً.. بكى لأيّام.

كانتِ الجَدَّةُ وَفاء تُجلبُ معها أحياناً الأكسِيَةَ الجَديدَة في بدايةِ مَوسِمَي الصَّيفِ والشِّتاء، وهدايا وحلاوين، وكانتْ هذه مصدَرَ فخرٍ وتباهي الولَد أمامَ الصِّبيَةِ رُفقائه، ومُعظمُهُم كانَ فقيراً، ليسَ هناكَ كائِناتٌ تقومُ بزيارتِهم منَ "العالمِ الخارجيّ". كانَ يُقولُ لهذا الفتى أو ذاك:

– أنظر.. لقدِ اشترَتْ لي وَفاء هذا الحِذاء.. أليْسَ جَميلاً؟

ولم يكن أحدٌ يسألُهُ من هي وَفاء! هذا ليسَ هامّاً البتَّة بالنِّسبَةِ للأولاد الآخرين. ورُبَّما الإيقانُ المَنطقيُّ الفِطريّ أنبأَهُم أنَّها ليسَت والدَتَهُ بلا شَكّ.. وَإذا كانتْ وَفاء أمَّه فما غايةُ وُجودِهِ في المَيتَم؟! هي خالتُه أو عَمَّتُه.. أو صَديقة مُقرَّبَة منَ العائِلَة تعطِفُ وتحنو عليه. ولم يَخطرْ لهُم أنَّها الجَدَّة بسَببِ تأنُّقِها اللاّفت ربَّما، وتَصابيها. فالوَلَدُ اليَتيم

الذي لم يَذقْ حياةَ الأسرةِ منذ دُخولِهِ إلى جَحيمِ عالَمِنا.. لن يُدركَ بسُهولةٍ العناصرَ والأشخاصَ التي تؤلِّفُ مُجتَمعَ العائِلة.. فمَلكوتُ المَيتَم برَدْهاتِهِ وباحاتِهِ ويَوميَّاتِه وقوانِينِهِ ونشَاطاتِهِ.. هو لفيفُ أسرَتِهِ.

– هذه أسبابُ أسبابِ الأسبابِ البَعيدَةِ يا سيِّد صَخر. قاطَعَ شَكيبُ صَخراً مُعلِّقاً بنُكتة. ورَدَّ صَخر:

– جَريمةُ ١٩ تشرين الأوّل ٢٠١٥ أخلاقيَّة إنسَانيَّة بامتياز يا سيِّد شَكيب!

وعادَ إلى حكايةِ الولَدِ، فيما صمَتَ شَكيب مُدَوَّر صمتاً طويلاً هذه المَرَّة، وعيناهُ غائِصتانِ في ملامِحِ صَخر سويدان وهو يتحدَّثُ عن طفولةِ يَتيمِهِ الغامضَة، غيرَ مُكترثٍ بمَظهر وأناقةِ مُحدِّثِهِ البارزَة، وَسَاعتِهِ المُذهَّبَة التي تشي بما لا لُبْسَ فيه بثرَاءٍ.. رغمَ الخَلفيَّة الفَقيرَة!

ذاتَ يَوم.. وهذه قبلَ غيابِ وَفاء الجَدَّة.. وجَدَ الولدُ اليَتيمُ علبَتي البسكويت ومُرَبَّى راحة الحَلقوم بالفستق اللتين أحضرَتهما إليه وَفاء مَسرُوقَتَين من الخِزانةِ التي بجَانبِ سريرِهِ! وبقيَ صامتاً لم يُخبرْ أحداً بالأمر. كانَ كَريماً.. وأعطى رفيقَه الذي بجانبِهِ منها.. لقد كانَت كلماتُ وَفاء سَفينتَهُ في رحلةِ أحلامِ يَقظتِهِ الكثيرَة: "إن بَقيتَ عاقِلاً رائقاً مُطيعاً طوالَ الوَقت هنا، سآخذُكَ معي إلى البَيت ولن ترجعَ إلى هذا المَكان أبَداً"، ولكنَّها كانتْ تشكُلُ وعودَها هذه بالزَّمَن: "ولكن.. عندما يَحينُ الوَقت يا حَبيبي". وإذا سألَها مُلِحّاً: "متى يَحينُ الوَقتُ يا وَفاء؟!" كانتْ تبقى صامتةً مُظهرَةً عدمَ سماعِها السُّؤال. كانَ يعلمُ أنَّ افتضاحَ أمر السّارق سيجعلُه مَكرُوهاً منه، وقد يُنتِجُ هذا مشاكِلَ.. فآثَرَ التَّضحيةَ بالحَلاوين من أجل حَياةٍ جَديدةٍ معَ وَفاء. من هنا كانَ سلوكُهُ شبهَ مثاليّ.. ما خلا بعض الشَّقاوَةِ والتَّذاكي في إبراز شَجاعتِهِ الذّاتيَّةِ في المنافساتِ والمُغامرات. وعلِمَتْ بقضيَّةِ سَرقةِ الحَلاوين هذه المسؤُولةُ عن الغُرَف، ولم تعرفْ مَنْ هوَ الفاعِل.. ولم تجدْ أثراً يُذكرُ لهذِهِ السَّرقةِ المُوَفَّقة. وهدَّدَت بأنَّ العاقبَةَ ستكونُ وَخيمةً جدّاً! مرَّتِ الأيّامُ والولدُ حزينٌ جدّاً.. وكانَ خائِفاً من تداعياتِ الحَادثة. وبَعدَ حوالي خمسَةِ أيّام هربَ أحدُ الأولاد منَ المَيتم واسمُه (دوري)، ولمْ يعرفْ أحدٌ عنه شيئاً لأشهرٍ طويلةٍ

رغمَ المُحاولاتِ الحَثيثَة. وذاتَ يَوم.. وكانَ الطَّقسُ ماطِراً.. شاهدَ صِبيَةُ المَيتَم، من وَرَاءِ النَّوافذِ الزُّجاجيَّةِ الواسِعَة في غرفَةِ الطّعام، رفيقَهم دوري بصُحبَةِ رَجُلين منَ العَسَاكر مُقبلَيْنَ منْ جهَةِ البَوَّابةِ الخارجيَّة. وراحوا يتهامسونَ: "هذا دوري! لقد رجعَ دوري!". وكانَ الهُزالُ بادياً في قامتِهِ النَّحيلة. وهكذا عادَ الصَبيُّ دوري إلى المَيْتَم معَ تَحذير شَديدٍ منَ الإدارَة أن لا يسألَهُ أحدٌ شيئاً عن سَفرتِهِ القصيرةِ هذه. وعادَتِ الأيّامُ إلى مَسيرَتِها الرَّتيبَةِ في المَيْتَم.. ثمَّ بدأ دوري يُحاولُ أن يكونَ قريباً من الولَدِ موضوعِ حَديثِنا.. وقد نسِيَ الأولادُ الحِكايَةَ بالكامل.. فهمَسَ إليهِ ذاتَ مساءٍ وقالَ له:

– لا تُخبرْ أحداً بما سأقولُه لك.. أنا أثقُ بكَ. وأجابَ الولدُ موضوعُ حديثِنا:

– ماذا هناكَ يا دوري؟ قلْ ولن أخبرَ أحداً صدِّقني. فقالَ دوري:

– لقد كنتُ في السِّجن.

ذُعِرَ الصَّبيّ..! أخرَسَتْهُ المُفاجأة.. وبقيَ ذاهلاً أمامَه. قالَ دوري:

– لقد نَشَلَتُ جَزادين ثلاثِ نسَاء.. فاكتشفوا أمري وَألقوا القبضَ عليَّ وأدخلوني إلى السِّجن. لقد ضَرَبَني عَسكريٌّ مُخيفٌ وهو يسألُني عن السَّرقات.. بيدِهِ وبالخَيزرَانةِ أيضاً. وبقيتُ في السِّجن شَهرين ثمَّ أعادوني إلى المَيتَم. وصارَ دوري يَبكي.

بقيَ الولَدُ موضوعُ حديثِنا صامتاً لا ينبسُ ببنتِ شَفَة. وعادَ دوري وتابعَ الكلام:

– أما زلتَ تذكرُ علبَتَي البسكويت وراحةِ الحلقوم؟

ولم يُجِبْ قبلَ مرورِ ثوانٍ، وتكلَّمَ متمَهِّلاً والدَّهشَةُ توشِّحُ مُقلتيه:

– بلى.. أذكرُها يا دوري.

– أنا الذي سرقتُها منَ الخزانةِ بجانبك. أنا الآن أطلبُ منكَ أن تُسامِحَني.. سامِحني أرجوك! وأريدُ أن نكونَ منَ الآنَ وَصاعداً صَديقَين.

لقد غفرَ لِدوري من فورِه، وربَّتَ على كتِفِهِ وأحبَّهُ. بيدَ أنَّ أفكارَه قفزَتْ إلى "العالمِ الخارجيّ"، وماذا يُمكِنُ أن يُخفيَهُ هذا العالم من تحدِّياتٍ ومُفاجآت. أهوَ غابة.. أم

متاهَة.. أو مُحيطٌ هائجٌ مائِج.. وهنا المَيتَم قلعَة منيعَة؟! ومنذ بدايةِ صداقتِهِ بالصَّبيّ دوري خبَا الشَّوقُ في نفسِهِ نحو ما ظنَّهُ أرحَبَ وأجمَلَ من يوميَّاتِ وقوانينِ المَيتَم الصّارمَة. هو لم يكُنْ مثاليّاً نقيضاً لِدوري.. إنّه ولدٌ في نِهايةِ المَطاف.. شَقِيٌّ ذكيٌّ يُحبُّ العَبَثَ واللّعِب.. يَعشَقُ المُغامرات في الرِّحلات والمُخيَّمات والتَحدِّيات. والذي ميَّزَهُ عن مُجايليهِ في المَيتَم شجاعَتُهُ حَدَّ التَهوُّر، وسُرعةُ خاطر تكاد تكونُ سِحراً أو مَوهبَة.. حَدْساً روحانيّاً غامضاً. ولكِنَّ إرثاً ثميناً أودَعَتْهُ إيّاهُ وَفاء قبلَ رَحيلِها إلى السَّماء بشَهرَين.. إنجيلٌ صَغير.. وقالت له: "إحتفِظْ بهذا الإنجيل معَكَ جيِّداً وطوالَ العُمر.. لأنَّهُ رَجاؤُكَ الوَحيد في هذِه الحَيَاة". وقد كتبَتْ على الوَرَقةِ البَيضاء الأخيرَةِ فيه الكلِماتِ التالية:

والِدي هو السيِّد غَيث الرَّاسي، الاقتصاديُّ الكبير مالكُ الشَّركات العِقاريَّة.

سامي معروف
شاعر وروائي